

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٢٩ - سُورَةُ الْعَنْكَبُوتِ

سميت بها لاشتمالها على آية^(١) (مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ) الآية، المشير إن من اعتمد على قوة الأصنام وحفظها عن العذاب كالعنكبوت، اعتمدت على قوة بيتها التي لا تحتمل مسّ أدنى الحشرات والرياح، وحفظها عن الحر والبرد. وهذا آتمّ في الدعوة إلى التوحيد الذي هو أعظم مقاصد القرآن. أفاده المهايمي.

وهي مكّيّة. واستثنى من أولها إلى قوله تعالى^(٢) (وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ) وقوله^(٣) : (وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ) الآية ويقال إنها آخر منازل بمكة. وآياتها تسع وستون. قال الداني: متفق عليه.

(١) [٢٩ / العنكبوت / ٤١] .

(٢) [٢٩ / العنكبوت / ١١] .

(٣) [٢٩ / العنكبوت / ٦٠] .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (الْم)

[٢] (أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكَوَأَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ)

[٣] (وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، فَلْيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلْيَعْلَمَنَّ

الْكٰذِبِينَ)

«الْم أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكَوَأَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ» أى أحسب الذين أجرُوا كلمة الشهادة على ألسنتهم ، وأظهروا القول بالإيمان ، أنهم يتركون بذلك غير ممتحنين ، بل يحسبهم الله بضروب المحن ، حتى يبلاو صبرهم وثبات أقدامهم وصحة عقائدهم . لتمييز المخلص من غير المخلص . كما قال (١) (لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعَنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا ، وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ) وكقوله (٢) (أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ) وقوله تعالى (٣) (أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ ، مَسَّتَهُمُ الْبُاسَاتُ وَالضَّرَآءُ لَزُلُوعًا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ ، أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ) وكل هذه الآيات وأمثالها مما نزل بمكة في تثبيت قلوب المؤمنين ، وتصبيرهم على ما كان ينالهم

(١) [٣ / آل عمران / ١٨٦] .

(٢) [٣ / آل عمران / ١٤٢] .

(٣) [٢ / البقرة / ٢١٤] .

من أذى المشركين « وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ » أى من أتباع الأنبياء عليهم السلام ، بضروب من الفتن من أعدائهم ، كما دون التاريخ اضطهادهم . أى فصبروا وماوهنوا لما أصابهم حتى علت كلمة الله « فَلْيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا » أى فى قولهم (ءَامِنًا) « وَلْيَعْلَمَنَّ الْكٰذِبِينَ » أى فيه : وذلك بالامتحان .

فإن قيل : يتوهم من صيغة الفعل أن علمه حدث ، مع أنه قديم . إذ علمه بالشئ ، قبل وجوده وبعده ، لا يتغير . يجب أن الحادث هو تعلق علمه بالمعلوم بعد حدوثه .

وقال الناصر : فائدة . ذكر العلم ههنا ، وإن كان سابقاً على وجود المعلوم هو التنبيه بالسبب على المسبب . وهو الجزاء كأنه قال تعالى (ليعلمنهم فليجازينهم بحسب علمه فيهم) . وقال المهايى : (فَلْيَعْلَمَنَّ اللَّهُ) أى يظهر علمه عند خلقه بصدق إيمان (الَّذِينَ صَدَقُوا) فيه ، بدلالة ثباتهم عليه عند المصائب (وَلْيَعْلَمَنَّ) أى وليظهر علمه بكذب دعوى (الْكٰذِبِينَ) لثلا يشهدوا عنده بإيمان الكاذبين ، فينسب فى تعذيبهم إلى الظلم . وليثق المؤمنون بحجة الصادقين ، ويستظفروا بها ، ويحذروا عن مكر الكاذبين . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤] (أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا ، سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ)

[٥] (مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ ، وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)

[٦] (وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ ، إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ)

[٧] (وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ

أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ)

« أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا » أى يفوتونا ، فلا نقدر على مجازاتهم

بمساوى أعمالهم « سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ » أى بسئ الذى يحكمونه حكمهم « مَنْ كَانَ يَرْجُوا

لِقَاءِ اللَّهِ» أى فى الجنة من رؤيته، والفوز بكرامته «فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ وَهُوَ الْمَوْتُ «لَأْتِ» أى فليبادر ما يصدق رجاءه ويحقق أمله من الثبات والتواصى بالحق والصبر والرغبة فيما عنده تعالى . أو المعنى : من كان يرجو لقاء الله ، من كل من صدق فى إيمانه ، وأخلص فى يقينه ، ناعلم أن أجل الله لآت . وهو الوقت الذى جعله أجلاً وغاية لظهور النصر والفتح وعلو الحق وزهوق الباطل . أى فلا يستبطئنه . فإنه آت بوعده الله الحق وقوله الصدق . ولم أر من ذكره ولعله أنسب بقرينة السياق والسباق . والله أعلم «وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ» أى السميع لأقوالهم العليم بضمائرهم وأحوالهم «وَمَنْ جَهَدَ» أى فى الصبر على البلاء والثبات على الحق مع ضروب الإيذاء «فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ» أى لأنه يمهّد لنفسه ، ما يبغى به ثمرة غرسه «إِنَّ اللَّهَ لَعَنَى الْعَكْفَبِينَ * وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ» أى أحسن جزاء أعمالهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

- [٨] (وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا . وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ، إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ)
 [٩] (وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ)

«وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا» أى أمرناه أمراً مؤكداً بإيلاء والديه فعلاً ذا حسن عظيم «وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا» أى فى الشرك ، إذا حملك عليه . ومعنى (مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ) أى لا علم لك بإلهيته . قال القاضى : عبر عن نفيها بنفى العلم بها ، للإيذان بأن ما لا يعلم صحته ، لا يجوز اتباعه ، وإن لم يعلم بطلانه . فكيف بما علم بطلانه؟ «إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ» أى إلى مرجع من آمن منكم ومن أشرك . فأجازكم حق جزائكم . فيه التحذير من متابعتهم على الشرك

والحث على الثبات والاستقامة في الدين ، بذكر المرجع والوعيد . وقد روى أن سعد بن أبي وقاص الزهري رضي الله عنه حين أسلم ، قالت أمه : يا سعد ! بلغني أنك قد صبأت . فوالله ! لا يظلمني سقف بيت من الضحّ والريح . وإن الطعام والشراب على حرام ، حتى تكفر بمحمد وكان أحب ولدها إليها . فأبى سعد . وبقيت ثلاثة أيام كذلك . فجاء سعد إلى رسول الله ﷺ وشكا إليه . فنزلت هذه الآية ، والتي في لقمان ، والتي في الأحقاف . فأمره رسول الله ﷺ أن يداريها ويترضاها بالإحسان . وروى الترمذي عن سعد^(١) قال : نزلت في أربع آيات . فذكر قصته وقال : قالت أم سعد : أليس الله قد أمرك بالبر ؟ والله لا أطعم طعاما ولا أشرب شرابا حتى أموت ، أو تكفر . فكانوا إذا أرادوا أن يطعموها شجروا فاهها . فنزلت هذه الآية قال ابن كثير : وهذا الحديث رواه الإمام أحمد ومسلم وأبو داود والنسائي أيضا . وقال الترمذي : حسن صحيح «وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ» أى في زمرة الراسخين في الصلاح والسكال .

قال الزمخشري : والصلاح من أبلغ صفات المؤمنين ، وهو متمنى أنبياء الله . قال الله^(٢) تعالى حكاية عن سليمان عليه السلام (وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ) وقال^(٣) في إبراهيم عليه السلام (وَإِنَّهُ وَفِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ) أو المعنى : في مدخل الصالحين وهي الجنة . وهذا نحو قوله^(٤) تعالى (وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ) الآية .

(١) أخرجه الترمذي في : ٤٤ - كتاب التفسير ، ٢٩ - سورة العنكبوت ، حدثنا محمد

ابن بشار ومحمد بن الثني .

(٢) [٢٧ / النمل / ١٩] . (٣) [١٦ / النحل / ١٢٢] و [٢٩ / العنكبوت / ٢٧] .

(٤) [النساء / ٦٩] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠] (وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ،
«وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ

اللَّهِ » أى جعل ما يصيبه فى الصّرف عن الإيمان من ضروب الإيذاء، بسببه ، مثل عذاب الله فى الشدة والهول . فيرتد عن الدين . مع أن مقتضى إيمانه أن يصبر ويتشجع ويتلقى ما يفاله فى الله بالرضا ، ويرى العذاب فيه عذوبة والحنة منحة . فإن العاقبة للمتقى وسعادة الدارين لأهلها «وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوْ لَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ» أى من التلبيس والإخلاق . وهذه الآية كقوله تعالى^(١) (وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ، فَإِن أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ ، وَإِن أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ أُنْقَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ ، إِلَى قَوْلِهِ^(٢) (ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ البَعِيدُ) وكقوله سبحانه^(٣) (الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعَكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ) وقال تعالى^(٤) (فَعَسَىٰ اللَّهُ أَن يَأْتِيَنَا بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِنْدِهِ فَيُضْحِكُوا عَلَىٰ مَا أَسْرَوْا فِي أَنفُسِهِمْ نَدِيمِينَ) .

القول في تأويل قوله تعالى :

أَوْ لَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ)
[١١] (وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ)

(١) [٢٢ / الحج / ١١] . (٢) [٢٢ / الحج / ١٢] . (٣) [٤ / النساء / ١٤١] .

(٤) [٥ / المائدة / ٥٢] .

[١٢] (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ
وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ ، إِنَّهُمْ لَكَذِبُونَ)
[١٣] (وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ ، وَلَيَسْئَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ
عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ)

« وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا » أى بإخلاصهم « وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ » ثم بين تعالى
حمل كفار قريش لمن آمن على الكفر بالاستمالة ، بعد بيان حملهم لهم عليهم بالأذية ، بقوله
« وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ » أى إن كان
ذلك خطيئة يؤاخذ عليها بالبعث ، فتبعتمنا علينا وفي رقابنا .

قال ابن كثير: كما يقول القائل افعل كذا وخطيئتك فى رقبتي . قال الله تعالى تكذبا لهم
« وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَذِبُونَ * وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ » وهى
أوزار أنفسهم « وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ » أى وأوزاراً أأخر مع أوزار أنفسهم . يعنى أوزار الإضلال
والحمل على الكفر والصدعن سبيل الله . كما قال تعالى ^(١) (لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ
وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّوهُمْ يَغِيرَ عِلْمٍ) وفى الصحيح ^(٢) (من دعا إلى هدى كان له من الأجر
مثل أجور من اتبعه إلى يوم القيامة من غير أن ينقص من أجورهم شيئا . ومن دعا إلى ضلالة
كان عليه من الإثم مثل آثام من اتبعه إلى يوم القيامة ، من غير أن ينقص من آثامهم شيئا)
« وَلَيَسْئَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ » أى من الأكاذيب والأباطيل . ثم بين تعالى افتتان
الأنبياء بأذية أممهم ، إثر بيان افتتان المؤمنين بأذية الكفار ، تأكيد الإنكار على الذين يحسبون
أن يتركوا بمجرد الإيمان بلا ابتلاء ، وحثاً لهم على الصبر تأسيا بالأنبياء ، فقال سبحانه :

(١) [١٦ / النحل / ٢٥] .

(٢) أخرجه مسلم فى : ٤٧ - كتاب العلم ، حديث ١٦ (طبعتنا) عن أبى هريرة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٤] (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ ۖ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ)

[١٥] (فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ)

[١٦] (وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ، ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ)

[١٧] (إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ، إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَأَشْكُرُوا لَهُ ، إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)

[١٨] (وَإِن تَكْذِبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ، وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا أَلْبَلُغُ الْأَمِينِ)

[١٩] (أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ، إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ)

« وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ ۖ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ * فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً » أي هذه الحادثة الهائلة موعظة « لِلْعَالَمِينَ * وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا » أي كذبا ، في تسميتها آلهة وشركاء لله ، وشفعاء إليه « إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَأَشْكُرُوا لَهُ ، إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * وَإِن

تُكذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ، وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ» أى التبليغ الذى يزيل كل لبس وما عليه أن يصدقه قومه «أَوْ لَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَ» إرشاد إلى إثبات المعاد الذى ينكرونه مع وضوح دليله ، وذلك بما يشاهدونه فى أنفسهم من خلق الله إياهم بعد أن لم يكونوا شيئاً مذكوراً، ثم وجدوا ووصاروا أناساً سامعين مبصرين . فالذى بدأ هذا ، قادر على إعادته . فإنه سهل عليه ، يسير لديه . فقوله تعالى (ثُمَّ يُعِيدُهُ) عطف على (أو لم يروا) لاعلى (يبدئ) لعدم وقوع الرؤية عليه . فهو إخبار بأنه تعالى يعيد الخلق قياساً على الابتداء . وقد جوز العطف على (يبدئ) بتأويل (الإبداء) بإبداء ما يشاهده ، كالنبات وأوراق الأشجار وغيرها . والإعادة بإنشائه تعالى كل سنة ، مثل ما أنشأه فى السنة السابقة من النبات والثمار وغيرها . فإن ذلك مما يستدل به على صحة البعث ووقوعه من غير رب . فيصح حينئذ العطف .

قال الشهاب : لكنه غير ملاق لما وقع فى غير هذه الآية .

قال : وبهذا التقرير سقط ما قيل : إن أريد بالرؤية العلم فكلاهما معلوم . وإن أريد الإبصار فهما غير مرتين . مع أنه يجوز أن يجعل ما أخبر به الله تعالى لتحققه ، كأنه مشاهد «إِنَّ ذَلِكَ» أى ما ذكره ، وهو الإعادة «عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ» .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ، ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ

النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ ، إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

[٢١] (يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ ، وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ)

[٢٢] (وَمَا أَنتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ، وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ

مِن وَّلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ)

[٢٣] (وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَئِكَ يَكْفُرُونَ مِنْ رَحْمَتِي وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

[٢٤] (فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)

« قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ » أى كيف خلقهم ابتداء على أطوار مختلفة وطبائع متغايرة وأخلاق شتى. فإن ترتيب النظر على السير فى الأرض، مؤذن بتتابع أحوال أصناف الخلق القاطنين فى أقطارها « ثُمَّ اللَّهُ يُدْشِي النِّشَاءَ الْأُخْرَةَ » أى الخلق الآخر « إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ » أى بعد النشأة الثانية، وهم المنكرون لها « وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ » وهم المؤمنون بها « وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ * وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ » أى بالتوارى فى الأرض، ولا بالتحصن فى السماء التى هى أفسح منها، لو استطعم الرق فىها. أو القلاع الذاهبة فيها. فىكون المراد بالسماء ما ارتفع. وقيل : المعنى (ولا من فى السماء) فحذف اسم الموصول وهو مبتدأ محذوف الخبر. والتقدير (ولا من فى السماء بمعجزه) والجملة معطوفة على جملة (أنتم بمعجزين) وفيه تكلف وضعف صناعى « وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ » أى يدافع عنكم ما يراد بكم « وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَئِكَ يَكْفُرُونَ مِنْ رَحْمَتِي وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » ثم أشار تعالى إلى ما أجاب به قوم إبراهيم، بعد دعوته إياهم وعظاته البالغة، بقوله « فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ . »

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٥] (وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ لَّصِيرِينَ)

[٢٦] (فَأَمَّنْ لَهُمْ لُوطٌ ، وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي ، إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

[٢٧] (وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ

وَإِذْ أَخْبَرَهُمْ فِي الْأَخِرَةِ لِمَنِ الصَّالِحِينَ)

[٢٨] (وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا

مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ)

[٢٩] (أَلَيْسَ لَكُم مِّنْ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ لَكُمُ الْآيَاتُ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ)

الْمُنْكَرَ ، فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَتَيْنَا بِعَذَابِ اللَّهِ

إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ)

« وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا » أى

للتوادوا بينكم وتواصلوا، لاجتماعكم على عبادتها « ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ

وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا » أى تتجاهدون ما كان بينكم، ويلعن الأتباع المتبعين، والمتبعون

الأتباع . كما قال تعالى^(١) : (كَلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعْنَتْ أُخْتَهَا) وقال تعالى^(٢) (الْأَخِلَّاءُ

يَوْمَئِذٍ لِّبَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ) « وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ

لَّصِيرِينَ » .

(١) [٧ / الأعراف / ٣٨] . (٢) [٤٣ / الزخرف / ٦٧] .

تنبيه :

قال السمين : في (ما) من قوله تعالى (إِنَّمَا أُتَّخَذْتُمْ) ثلاثة أوجه :

أحدها - أنها موصولة بمعنى (الذى) والعائد محذوف ، وهو المفعول الأول و (أَوْثَانًا) مفعول ثان . والخبر (مودة) في قراءة من رفع . والتقدير : إن الذى اتَّخَذْتُمُوهُ أَوْثَانًا مودة ، أى ذو مودة ، أو جعل نفس المودة مبالغة . ومحذوف على قراءة من نصب (مودة) أى : الذى اتَّخَذْتُمُوهُ أَوْثَانًا لأجل المودة لا ينفعكم ، أو يكون عليكم ، للدلالة قوله (ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ) .

والثانى - أن تجعل (ما) كافة و (أَوْثَانًا) مفعول به . و (الاتخاذ) ههنا متعد لواحد . أو لاثنتين ، والثانى هو (من دون الله) فن رفع (مودة) كانت خبر مبتدأ مضمرة ، أى هى مودة أى ذات مودة . أو جعلت نفس المودة مبالغة . والجملة حينئذ صفة لـ (أَوْثَانًا) أو مستأنفة . ومن نصب كان مفعولاً له ، أو بإضمار (أعنى) .

الثالث - أن تجعل (ما مصدرية ، وحينئذ يجوز أن يقدر مضاف من الأول . أى : أن سبب اتخاذكم أَوْثَانًا مودة ، فيمن رفع (مودة) ويجوز أن لا يقدر ، بل يجعل نفس الاتخاذ هو المودة مبالغة . ومن القراء من رفع (مودة) غير منونة وجرّ (بينكم) ومنهم من نصب (مودة) منونة ونصب (بينكم) ومنهم من نصب (مودة) منونة وجرّ (بينكم) . فالرفع تقدم . والنصب تقدم أيضاً فيه وجهان . وجوز ثالث ، وهو أن يجعل مفعولاً ثانياً عن المبالغة والإضافة ، للاتساع في الظرف .

وتقل عن عاصم أنه رفع (مودة) غير منونة ونصب (بينكم) وخرجت على إضافة (مودة) للظرف . وإنما بنى لإضافته إلى غير متمكن . ٥١ .

وأشار العلامة القاشانى إلى جواز أن يكون قوله تعالى (فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) خبراً لـ (ما) إن كانت اسمية . وهو وجه لم يتعرض له العربون هنا ، ولا مانع منه . وعبارته :

إنما اتخذتم من دون الله، شيئاً عبدتموه مودوداً فيما بينكم (في الحياة الدنيا) أو: إن كل ما اتخذتم من دون الله، شيئاً مودوداً فيما بينكم في الحياة الدنيا، أو: إن كل ما اتخذتم أو أنانا مودود في هذه الحياة الدنيا. أو لمودة بينكم في هذه، على القراءتين.

ثم قال: والمعنى أن المودة قسمان: مودة دنيوية، ومودة أخروية. والدنيوية منشؤها النفس، والأخروية منشؤها الروح. فكل ما يحب ويودّ من دون الله، لا لله ولا بحسبة الله، فهو محبوب بالمودة النفسية. وهو هوى زائل، كلما انقطعت الوصلة البدنية زالت ولم تصل إلى إحدى القيّامات، فإنها نشأت من تركيب البدن واعتدال المزاج. فإذا انحلت التركيب وانحرف المزاج، تلاشت وبقى التضادّ والتعاند، بمقتضى الطبائع، لقوله تعالى (ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ) الآية. ولهذا شبهها ببيت العنكبوت في الوهن.

وأما الأخروية فنشؤها المحبة الإلهية. وتلك المودة هي التي تكون بين الأصفياء والأولياء، لتناسب الصفات، وتجانس الذوات، لاتصفي غاية الصفاء إلا عند زوال التركيب. فيصير يوم القيامة محبة صافية الهيئة، بخلاف تلك. انتهى.

« فَأَمَّن لَّهُو » أي صدق إبراهيم فيما دعاه إليه « لُوْطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ » أي من أرض قومي « إِلَىٰ رَبِّي » أي لا إلى غيره بل إلى عبادته وإقامة شعائر دينه والقيام بدعوة الخلق إلى الحق من شره وتوحيده « إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * وَوَهَبْنَا لَهُ - أي لإبراهيم « إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ » أي ولداً ونافلة، بمباركة الذرية « وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَءَاتَيْنَاهُ أَجْرَهُ وَفِي الدُّنْيَا » أي بإيتاء الولد والذرية الطيبة واستمرار النبوة فيهم وانباء أهل الملك إليه والثناء إلى آخر الدهر والصلاة عليه « وَإِنَّهُ وَفِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ * وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ » أي الفعلة المتناهية في القبح « مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ » أي لتحاشى الطباع عنها. ثم فصلها بعد الإجمال، لزيادة تنفير النفوس منها « أَيْنَكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقَاطِعُونَ السَّبِيلَ » أي سبيل النسل بإتيان ما ليس بحرث.

أو بعمل قطاع الطريق من قتل الأنفس وأخذ الأموال « وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمْ الْمُنْكَرَ » أى
مالا يليق من الأقوال والأفعال « فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَتِنَّا بِعَذَابِ
اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ » :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٠] (قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ)

[٣١] (وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ

الْقَرْيَةِ ، إِنْ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ)

[٣٢] (قَالَ إِنْ فِيهَا لُوطًا ، قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا ، لَنَنْجِيَنَّهٗ وَأَهْلَهُ

إِلَّا أُمَّرَأَتَهُ وَكَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ)

[٣٣] (وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ

وَلَا تَحْزَنْ ، إِنَّا مُنْجِيكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا أُمَّرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ)

« قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ » أى الذين يفسدون كل برهان عقلى ونقلى ،

وكل حكمة إلهية « وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى » أى بالبشارة بالولد والنافلة ،

وهم الملائكة . بعثوا لنصر لوط وتبشيره بهلاك قومه « قَالُوا » أى لإبراهيم عليه السلام

« إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ » أى قرية سدوم « إِنْ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ » أى

بتزليلهم الرجال منزلة النساء ، وقطع السبل ، وفعل المنكر وترك المعروف « قَالَ إِنْ فِيهَا لُوطًا

قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنَنْجِيَنَّهٗ وَأَهْلَهُ » إِلَّا أُمَّرَأَتَهُ وَكَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ » أى الباقين

فى العذاب أو القرية « وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا » أى المذكورون بعد مفارقتهم لإبراهيم عليه

السلام « لُوطًا سِيءَ بِهِمْ » أى اعترته الساء بسببهم مخافة أن يقصدوهم « وَضَاقَ بِهِمْ

ذَرَعًا» أى ضاق بشأنهم ذرعه ، أى طاقته « وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنْجُونَكَ
وَأَهْلَكَ » أى مما يصيبهم من العذاب « إِلَّا أُمْرًا تَكُ كَانَتْ مِنَ الْغَيْبِينَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٤] (إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَىٰ أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ)

[٣٥] (وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً كَبِيرَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)

[٣٦] (وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَلْقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ

وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ)

[٣٧] (فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيمِينَ)

[٣٨] (وَعَادًا وَثَمُودًا وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِّن مَّسْكِنِهِمْ ، وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ

أَعْمَلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ)

« إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَىٰ أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ » أى عذابا عظيما من جهتها

« بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ » * ولقد تركنا منها آية كبرى ليقوم يعقلون « يعنى قصتها العجيبة ،

أو آثارها الحربة » (وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَلْقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ »

أى توقعوه ، وما سيقع فيه من فنون الأهوال « وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ » أى بالبنى

على أهلها ، كنفص المكيال والميزان ، وقطع الطريق على الناس ، فإن عاقبة ذلك الدمار « فَكَذَّبُوهُ

فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ » أى الصيحة التى هى منشأ الزلزلة الشديدة « فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ » أى بلدهم

أو منازلهم « جِثِيمِينَ » أى هلكى ميتين « وَعَادًا وَثَمُودًا وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِّن مَّسْكِنِهِمْ

وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ » أى عقلاء

متمكنين من النظر والافتكار بواسطة الرسل عليهم السلام ، فإنهم أوضحوا السبل ، فلم يكن

لهم فى ذلك عذر ، ولكنهم لم يفعلوا ، عنادا وكبرا .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٩] (وَقَرُونِ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ ، وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ فَأَسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ)

[٤٠] (فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِمْ ، فَمِنْهُمْ مَن أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَن أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَن خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَن أَغْرَقْنَا ، وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ)

« وَقَرُونِ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ فَأَسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ » أى فأتين الله سبحانه. بل لحقهم عذابه فدمروهم تدميراً. ولذا قال « فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِمْ فَمِنْهُمْ مَن أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا » أى ريحاً عاصفاً، فيها حصباء، وهم قوم لوط « وَمِنْهُمْ مَن أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ » كمدىن وعمود « وَمِنْهُمْ مَن خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ » كقارون « وَمِنْهُمْ مَن أَغْرَقْنَا » كقوم نوح وفرعون وقومه « وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ » أى بفعل ما يوجب ذلك ، من البغى والفساد .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤١] (مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ ، اتَّخَذَتْ بِئْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْيَبُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ ، لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ)

[٤٢] (إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

[٤٣] (وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ)

[٤٤] (خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ)

« مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بِئْتًا » أى

تعتمد على قوته وتظنه محيطاً بها، دافعاً عنها الحرّ والبرد « وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ » أى أضعفها « لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ » أى لأنه لا يحتمل مسّ أدنى الحيوانات وأضعف الرياح . ولا يدفع شيئاً من الحرّ والبرد . وهذا مثلهم «لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ» أى شيئاً ما . أو إن أولياءهم أوهى من ذلك ثم الغرض من التشبيه هو تقرير وهن دينهم ، وإنه بلغ الغاية فيه ، وهو إما تشبيه مركب من الهيئة المنزعة، فدار قطب التمثيل على أن أولياءهم بمنزلة نسج العنكبوت في ضعف الحال وعدم الصلاحية للاعتماد . وعلى هذا فقوله (وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ) تذييل يعرف الغرض من التشبيه . وقوله (لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ) إيغال في تجهيلهم . لأنهم لا يعلمونه مع وضوحه لدى من له أدنى مسكة . وإما أن يكون من تشبيه المفرد، لأن المقصود بيان حال العابد والمعبود . وفي الآية لطائف بيانية ذكرت في المطولات . وقوله «إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ» بالياء والتاء في (تدعون) قراءتان . و (ما) إما استفهامية منصوبة بـ (يدعون) و (من) الثانية للتبيين . أو نافية و (من) مزيدة . و (شيء) مفعول (تدعون) أو مصدرية بمعنى الدعوة و (شيء) مصدر بمعناه أيضاً . أو موصولة مفعول (يعلم) ومفعول (يدعون) عائدة المحذوف . والكلام على الأولين تجهيل لهم وتوكيد للمثل . وعلى الآخرين وعيد لهم . أفاده القاضي « وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ » يعنى هذا المثل ونظائره في التنزيل « نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ » أى ليقرب ما بعد من أفهامهم . فإن الأمثال والتشبيهات طرق تبرز فيها المعاني المحتجبة للأفهام « وَمَا يَعْقِلُهَا » أى يدرك حسنها وفوائدها « إِلَّا الْعَالِمُونَ » أى الراسخون في العلم الكاملون فيه . وعن عمرو بن مرة قال : ما مررت بآية من كتاب الله لا أعرفها ، إلا أحزنتنى . لأنى سمعت الله تعالى يقول (وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ) « خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ » أى محققاً مراعيّاً للحكم والمصالح ، مقدساً عن أن يقصد به باطلا . فالباء للملابسة ، والجار والمجرور حال . وهذا كقوله تعالى (١) « وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعَيْنِ » (١) « إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ » .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٥] (أتل ما أوحى إليك من الكتاب وأقم الصلاة ، إن الصلاة تنهى

عن الفحشاء والمنكر ، ولذكر الله أكبر ، والله يعلم ما تصنعون)

[٤٦] (ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا

منهم ، وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم

واحد ونحن له مسلمون)

« أتل ما أوحى إليك من الكتاب » أى تقر بالى الله تعالى بقراءته ، وتحفظاً لألفاظه ،

واستكثاراً لما فى تضاعيفه من المعانى . فإن القارى المتأمل قد ينكشف له بالتكرار ما لم ينكشف

له أول ما قرع سمعه . وتذكيراً للناس ، وجملاً لهم على العمل بما فيه ، من الأحكام ومحاسن

الآداب ومكارم الأخلاق « وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر » أى

تكون سبباً للانتهاج عن ذلك . ففيه تجوز فى الإسناد . فإن قلت : كم من مصل يرتكب ولا

تنهاه صلاته ! قلت : الصلاة التى هى الصلاة عند الله ، المستحق بها الثواب ، أن يدخل فيها

مقدماً للتوبة النصوح متقياً ، لقوله تعالى (إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ) ويصلبها خاشعاً

بالقلب والجوارح . ثم يحوطها بعد أن يصلبها ، فلا يحبطها ، فهى الصلاة التى تنهى عن

الفحشاء والمنكر . وعن ابن عباس رضى الله عنهما : من لم تأمره صلاته بالمعروف ، وتنهه

عن المنكر ، لم يزد بصلاته من الله إلا بعداً .

عن الحسن رحمه الله : من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر ، فليست صلاته بصلاة ،

وهى وبال عليه . أفاده الزمخشري . وقوله تعالى « وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ »

قال الزمخشري : أى : وللصلاة أكبر من غيرها من الطاعات ، وسببها بذكر الله ، كما قال (١)

(١) [٦٢ / الجمعة / ٩] .

(فَأَسْمِعُوا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ) وإنما قال (ولذکر الله) ليستقل بالتعليل. كأنه قال: وللصلاة أكبر، لأنها ذكراً لله. أو: ولذکر الله عند الفحشاء والمنكر، وذکر نبيه عنهما ووعيده عليهما، أكبر. فكان أولى بأن ينهي من اللطف الذي في الصلاة. وعن ابن عباس رضي الله عنهما، ولذکر الله إياكم برحمته، أكبر من ذكركم إياه بطاعته. انتهى. (فذکر) على الأولين مصدر مضاف للمفعول. وعلى ما بعدها مضاف للفاعل، والمفعول محذوف. والمفضل عليه في الأولين غيره من الطاعات. وفي الأخير قوله (من ذكركم).

وقال الرازي: لما ذكر تعالى أمرين، وهما تلاوة الكتاب وإقامة الصلاة، بين ما يوجب أن يكون الإتيان بهما على أبلغ وجوه التعظيم، فقال (وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ) وأتم إذا ذكركم آباءكم بما فيهم من الصفات الحسنة، تنبشون لذلك وتذكرونهم على أفواهكم وقلوبكم. لكن ذكراً لله أكبر، فينبغي أن يكون على أبلغ وجه التعظيم. وأما الصلاة فكذلك. لأن الله يعلم ما تصعمون. وهذا أحسن صنعكم. فينبغي أن يكون على وجه التعظيم. وفي قوله (وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ) مع حذف بيان ما هو أكبر منه، لطيفة. وهي أن الله لم يقل: أكبر من ذكركم فلان، لأن ما نسب إلى غيره بالكبر فله إليه نسبة. إذ لا يقال الجبل أكبر من خردلة وإنما يقال: هذا الجبل أكبر من هذا الجبل. فأسقط المنسوب كأنه قال (ولذکر الله له الكبر لا غيره) وهذا كما يقال في الصلاة (الله أكبر) أي له الكبر لا غيره. انتهى.

ولما بين تعالى طريقة إرشاد المشركين، ونفع من انتفع، وحصول اليأس ممن امتنع، بين طريقة إرشاد أهل الكتاب بقوله «وَلَا تُجَدِّلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ» أي بالخصلة التي هي أحسن. وهي اللين والأناة «إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ» أي بالاعتداء، بأن أخشوا في المقال وأقدعوا في الجدال، فلا حرج في مقابلتهم بالعنف، لتكبيهم عن جادة اللطف. وهذا كما قال تعالى^(١) «لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلِمَ» وهذه الآية أصل في آداب المناظرة والجدل «وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأَنْزِلَ إِلَيْكُمْ

(١) [٤ / النساء / ١٤٨].

وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُو مُسْلِمُونَ» أى مطيعون له خاصة . وفيه تعريض بأخذهم أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله .

قال ابن كثير : يعنى إذا أخبروا بما لا يعلم صدقه ولا كذبه ، فهذا لا يقدم على تكذيبه ، لأنه قد يكون حقا . ولا على تصديقه ، فاعلمه أن يكون باطلا . ولكن يؤمن به إيمانا مجملا معلقا على شرط . وهو أن يكون منزلا ، لا مبدلا مؤولا . وروى البخارى^(١) عن أبي هريرة قال : كان أهل الكتاب يقرؤون التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام . فقال رسول الله ﷺ : لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم . وقولوا آمنا بالذى أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون . وهذا الحديث تفرد به البخارى .

وروى الإمام أحمد^(٢) عن أبي نملة الأنصارى مرفوعا : إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم . وقولوا آمنا بالله وكتبه ورسله . فإن كان حقا لم تكذبوهم ، وإن كان باطلا لم تصدقوهم . ثم ليعلم أن أكثر ما يتحدثون به غالبه كذب وبهتان . لأنه قد دخله تحريف وتبديل وتغيير وتأويل . وما أقل الصدق فيه . ثم ما أقل فائدة كثير منه ، لو كان صحيحا .

روى البخارى^(٣) عن ابن عباس قال : كيف تسألون أهل الكتاب عن شىء ، وكتابكم الذى أنزل إليكم على رسول الله ﷺ أحدث . تقرؤونه محضا لم يشب . وقد حدثكم أن أهل الكتاب بدلوا وغيروا ، وكتبوا بأيديهم الكتاب ، وقالوا : هذا من عند الله ليشتروا

(١) أخرجه فى : ٩٦ - كتاب الاعتصام ، ٢٥ - باب قول النبي ﷺ : لا تسألوا أهل

الكتاب عن شىء ، حديث ١٩٦٦

(٢) أخرجه بالصفحة رقم ١٣٦ من الجزء الرابع (طبعة الحلبي) .

(٣) أخرجه فى : ٥٢ - كتاب الشهادات ، ٢٩ - باب لا يسأل أهل الشرك عن الشهادة

وغيرها ، حديث رقم ١٣٠٠

به ثمناً قليلاً . ألا إنها كم ما جاءكم من العلم عن مسألتهم ؟ لا ، والله ! ما رأينا منهم رجلاً يسألكم عن الذي أنزل عليكم .

وقال البخاري^(١) : وقال أبو اليمان : أخبرنا شعيب عن الزهري . أخبرني حميد بن عبد الرحمن أنه سمع معاوية يحدث رهطاً من قريش بالمدينة . وذكر كعب الأخبار فقال : إن كان من أصدق هؤلاء المحدثين الذين يحدثون عن أهل الكتاب . وإن كنا مع ذلك لنبلو عليه الكذب . معناه أنه يقع منه الكذب من غير قصد . لأنه يحدث عن صحف هو يحسن بها الظن ، وفيها أشياء موضوعة ومكذوبة . لأنهم لم يكن في ملتهم حفاظ متقنون كهذه الأمة العظيمة . ومع ذلك ، وقرب العهد ، وضعت أحاديث كثيرة في هذه الأمة ، لا يعلمها إلا الله عز وجل . ومن منحه الله علماً بذلك . كل بحسبه . والله الحمد والمنة . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٧] (وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ ، فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ

بِهِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ ، وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ)

[٤٨] (وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ وَبِمِيمِنِكَ ، إِذَا لَأَرْتَابَ الْمُبْطِلُونَ)

« وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ » أي : مثل ذلك الإنزال ، أنزلنا إليك الكتاب .

أي أنزلناه مصداقاً لسائر الكتب السماوية « فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ » أي العرب « مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ * وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ وَبِمِيمِنِكَ » أي فإن ظهر هذا الكتاب الجامع لما

(١) أخرجه في : ٩٦ - كتاب الاعتصام ، ٢٥ - باب قول النبي ﷺ : لا تسألوا أهل

الكتاب عن شيء ، حديث ٢٥٩٥

يكفل سعادة الدارين في شرائعه وقضاياه ، على أمي لم يعرف بالقراءة والتعلم ، خارق للمعادة .
 وذكر اليمين زيادة تصوير للمنفى ، ونفى للتجوز في الإسناد « إِذَا لَأَرْتَابَ الْمُبْطِلُونَ » أى
 لو كنت ممن يخط ويقرأ ، لقالوا : لعله تعلمه أو كتبه بيده ، من كتب مأثورة عن الأنبياء .
 تنبيه :

قال السيوطي في (الإكليل) : في هذه الآية دليل على أنه ﷺ كان أميا لا يقرأ ولا
 يكتب . وفيها ردّ على من زعم أنه كتب . انتهى .

وقال ابن كثير : وهذه صفته في الكتب المتقدمة . كما قال تعالى (١) (الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ
 الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عَلَيْهِمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ) الآية .
 وهكذا كان رسول الله ﷺ دائماً يحسن الكتابة ولا يخط سطر أو لاحرفا بيده . بل كان له كتابٌ
 يكتبون بين يديه الوحي والرسائل إلى الأقاليم . ومن زعم ، من متأخري الفقهاء ، كلقاضي ابن
 الوليد الباجي ومن تابعه ، أنه عليه السلام كتب يوم الحديبية : هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد
 الله . فإنما حملة على ذلك رواية (٢) في صحيح البخاري (ثم أخذ فكتب) وهذه محمولة على
 الرواية الأخرى (ثم أمر فكتب) ولهذا اشتد الفكير من فقهاء المشرق والمغرب على من
 قال بقول الباجي ، وتبرأوا منه وأنشدوا في ذلك أقوالا وخطبوا به في محافلهم . وإنما أراد الرجل أعنى
 الباجي فيما يظهر عنه . أنه كتب ذلك على وجه المعجزة . لأنه كان يحسن الكتابة . وما أورده بعضهم
 من الحديث ؛ أنه لم يمت ﷺ حتى تعلم الكتابة ، فضعيف لا أصل له . انتهى .

وقال الشهاب : وممن ذهب إلى أنه كان يحسن الكتابة ، أبو ذرّ الهروي وأبو الفتح
 النيسابوري وأبو الوليد الباجي من المغاربة . وصنف فيه كتابا ، وسبقه إليه ابن منبه . ولما
 قال أبو الوليد ذلك ، طعن فيه ورمى بالزندقة وسب على المنابر ، ثم عقد له مجلس فأقام الحجة

(١) [٧ / الأعراف / ١٥٧] .

(٢) أخرجه في : ٥٤ - كتاب الشروط ، ١٥ - باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع

أهل الحرب ، وكتابة الشروط ، حديث ٨٨١ و٨٨٢ عن السور بن مخرمة ومروان .

على مدعاه وكتب به إلى علماء الأطراف . فأجابوا بما يوافقهم . وأن معرفة الكتابة بعد أميته لاتنافية المعجزة . بل هي معجزة أخرى ، لكونها من غير تعليم . ورد الإمام محمد بن مفوز كتاب الباجي لما في الحديث الصحيح^(١) (إنا أمة أمية لانكتب ولا نحسب) وقال : كل ماورد في الحديث من قوله (كتب) فعناه أمر بالكتابة . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٩] (بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ، وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ)

[٥٠] (وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ ، قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ)

« بَلْ هُوَ » أي القرآن « آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ » أي العلماء به وحفاظه . وهما من خصائص القرآن كون آياته بينات الإعجاز ، وكونه محفوظا في الصدور ، يتلوه أكثر الأمة ظاهرا . بخلاف سائر الكتب . فإنها لم تكن معجزات ، وما كانت تقرأ إلا من المصاحف . ومنه ما جاء في صفة هذه الأمة (صدورهم أناجيلهم) . كذا في الكشف . « وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ * وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ » يعنون ما كانوا يقترحونه في تعنتهم « قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ » أي هو يملك إنزالها ، ولو شاء لفعل « وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ » أي ليس من شأني إلا الإنذار وإبانتته ، لا الإتيان بما تقترحونه . ثم أشار إلى أن في آية تنزيل الكتاب ، غنية عن كل آية مقترحة . لما أن الدور انقلب من الآيات الآفاقية ، إلى الآيات العلمية ، وفاقا لسنة الترقى ، بقوله سبحانه :

(١) أخرجه البخاري في : ٣٠ - كتاب الصوم ، ١٣ - باب قول النبي ﷺ : لانكتب

ولا نحسب ، حديث ٩٦٨ ، عن ابن عمر

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥١] (أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)

[٥٢] (قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ يَنِينِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ، يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ)

[٥٣] (وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ ، وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ)

[٥٤] (يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ)

[٥٥] (يَوْمَ يَغْشَاهُمْ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ)

[٥٦] (يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِنِّي فَاعْبُدُونِ)

« أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ » أى وفيه نفسه من الآيات والمعجزات ما لا يرتاب معه إلا من سفه نفسه ، وكابر حسه « إِنَّ فِي ذَٰلِكَ » أى الكتاب الذى هو آية مستمرة وحجة بالغة ظاهرة « لَرَحْمَةً » أى لنعمة عظيمة فى هدايته إلى الحق وإلى صراط مستقيم « وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ » أى تذكرة لقوم ، همهم الإيمان دون التعمت « قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا » أى إني قد بلغتكم ما أرسلت به إليكم وأنذرتكم ، وإنكم قابلتموني بالجد والتكذيب . يعنى . كفى علمه بذلك . وجوز أن يكون المعنى شهيدا بصدق بالتأييد والحفظ ، أى هو شاهد على ماجئت به ، مصدق له تصديق الشاهد لدعوى المدعى .

قال ابن كثير : أى فلو كنت غير محقّ ، لا نتقم منى ، كما قال تعالى (١) (وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ * إِلَّا اخْدَانًا مِنْهُ بِأَلِيمِينَ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ * فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَنِيزِينَ) وإنما أنا صادق عليه فيما أخبرتكم به. ولهذا أيدنى بالمعجزات الواضحات والدلائل القاطعات. انتهى « يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » أى فلا يخفى عليه حالى وحالكهم « وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ * وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ » أى استهزاء « وَلَوْ لَا أَجَلٌ مُّسَمًّى » أى لكل عذاب أو قوم، وهو وقته المعين له فيهما « لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ » أى عاجلا « وَكَيْلًا بَدَنَهُمْ بَفْتَنَةٍ » أى فجأة فى الدنيا. كوقعة بدر. فقد كانوا انزورهم لا يتوقعون غلبة المسلمين. أو فى الآخرة عند نزول الموت بهم (يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ) أى استحيط بهم. أى يستعجلونك بالعذاب وهو واقع بهم لا محالة. أو هى كالمحيطه بهم. لأن كل آت قريب. « يَوْمَ يَغْشَاهُمْ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُفْتُمْ تَعْمَلُونَ » أى جزاءه « يَعْبَادِي الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِنِّي فَاعِبُدُونِ » هذا خطاب لمن لم تمكنه عبادته تعالى وحده فى أرضه ، لإيذائه فى الله واضطهاده فى جانبه ، أن يهاجر عنها إلى بلد ما ، يقدر أنه فيه أسلم قلبا ، وأصح دينا ، وآمن نفسا . وأن يتجنب المقام فى بلده على تلك الحالة، كيلا يفتنه الكافرون . أو يعرض نفسه للتهلكة، وقد جعل له منها مخرج . وكون أرض الله واسعة ، مذكور للدلالة على المقدر . وهو كالتوطئة لما بعده . لأنها مع سمعتها ، وإمكان التفسح فيها ، لا ينبغى الإقامة بأرض لا يتيسر بها للمرء ما يريد . كما قيل : * وكل مكان ينبت العزطيب * . وقال آخر :

إذا كان أصلى من ترابٍ فسكّها بلادى ، وكلّ العالمين أقاربي

(١) [٦٩ / الحاقة / ٤٤ - ٤٧] .

وقد روى الإمام (١) أحمد عن الزبير: قال: قال رسول الله ﷺ: البلاد بلاد الله، والعباد عباد الله. فخيما أصبت خيرا فأقم. ولهذا لما ضاق على المستضعفين بمكة مقامهم، خرجوا مهاجرين إلى أرض الحبشة ليؤمنوا على دينهم هناك فوجدوا خير نزل بها، عند ملكها النجاشي رحمه الله. ثم بعد ذلك هاجر رسول الله ﷺ وأصحابه الباقون إلى المدينة المنورة، عملا بالآية الكريمة. وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

[٥٧] (كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ)

[٥٨] (وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ، نِعْمَ أَجْرُ الْعَمِلِينَ)

[٥٩] (الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ)

[٦٠] (وَكَأَيِّن مِّن ذَابَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ، وَهُوَ السَّمِيعُ

الْعَلِيمُ)

[٦١] (وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ مِّنْ خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاَسْخَرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ

لِيَقُولَنَّ اللَّهُ ، فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ)

« كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ » تحريض على العبادة وإخلاص الدين بتذكير الموت والرجعى. أو تسلية للمهاجر إلى الله ، وتشجيع له ، بأن لا يبتطه عن هجرته خوف الموت بسببها . فلا المقام بأرضه يدفعه ، ولا هجرته عنه تمنعه . وفيه استعارة بديعة لتشبيهه

(١) أخرجه في مسنده بالصفحة ١٦٦ من الجزء الأول (طبعة الحلبي) والحديث رقم ١٤٢٠

(طبعة المعارف).

الموت بأمر كرهه الطعم، مره « وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ * الَّذِينَ صَبَرُوا » أى على مفارقة الأوطان والهجرة لأجل الدين. وعلى أذى المشركين وعلى الحن والمصائب « وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ » ثم أشار تعالى إلى كفالته لمن هاجر إليه، من الفقر والضيعة، بقوله سبحانه « وَكَأَيِّنْ » أى: وكم « مِّن دَابَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا » أى لا تطيق أن تحمله لضعفها عن حمله « اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ » أى يقيض لها رزقها على ضعفها، ويرزقكم مع قوتكم واجتهادكم. فهو اليسر والمسهل لكل مخلوق من رزقه ما يصاحبه . فلا يختص رزقه ببقعة دون أخرى، بل خيره عام وفضله شامل لخلقه ، حيث كانوا وأنى وجدوا. وقد ظهر مصداق كفالته تعالى لأولئك المهاجرين ، بما وسع عليهم وبسط لهم من طيب الرزق ورغد العيش وسيادة البلاد فى سائر الأمصار. وهذا معنى ماورد من فوعا (سافروا تصحوا وتغنموا) رواه البيهقي « وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ » يعنى هؤلاء المشركين الذين يعبدون معه غيره « مَن خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولَنَّ اللَّهُ » أى اعترافا بأنه المنفرد بخلقها « فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ » أى فكيف مع هذا الاعتراف يصرفون عن عبادته وحده، ويشركون بها ما لا يضر ولا ينفع . وكثيرا ما يقرر تعالى مقام الإلهية بالاعتراف بتوحيد الربوبية . وقد كان المشركون يعترفون بذلك .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٦٢] (اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَ، إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)

[٦٣] (وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مِّن نَّزَلٍ مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا

لَيَقُولَنَّ اللَّهُ، قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ، بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ)

[٦٤] (وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُوٌّ وَلَعِبٌ، وَإِنَّ الْأُولَىٰ لَأُخْرَىٰ لَهَا

الْحَيَاةُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ)

«اللَّهُ يُبْسِطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ» أى فيفعل بعلمه ، ما تقتضيه حكمته . « وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مِّن نَّزَلٍ مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ، قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ » أى على أن جعل الحق بحيث لا يجترأ المبطلون على جحوده . وأنه أظهر حججتك عليهم . والمعنى : حمد الله عند جوابهم المذكور على إلزامهم وظهور نعم لا تحصى « بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ » أى فلذلك يتناقضون حيث ينسبون النعمة إليه ، ويعبدون غيره . وقوله « وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ » إشارة إلى ازدياد الدنيا وتحقير شأنها ، وكونها في سرعة زوالها ، وتقضى أمرها ، كما يلهمى ويلعب به الصبيان ، ثم يتفرقون عنه . ولا ثمرة إلا التعب . ففي الحصر تشبيهه بلمع « وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ » أى دار الحياة الخالدة . ففيه مضاف مقدر . و(الحيوان) مصدر سمي به ذو الحياة ، في غير هذا المحل . وإيثاره على (الحياة) لما فيه من المبالغة . لأن (فعلان) بالفتح في المصادر الدالة على الحركة « لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ » أى لم يؤثر واعليها الدنيا التي حياتها عارضة . وهذا جواب الشرط المقدر ، لعلمه من السياق . وكونها للتمنى بعيد .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٥] (فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِكِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ)

[٦٦] (لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا ، فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ)

[٦٧] (أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيَتَخَفَتُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ،

أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ)

« فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِكِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ » أى الدعاء . لعلمهم أنه لا ينجيهم من الفرق سواه « فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ * لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ » أى من

نعمة النجاة وريح التجارة « فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ » أى عاقبة ذلك حين يعاقبون « أَوَّلَمْ يَرَوْا »
 أى أهل مكة « أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا » أى لا يُغزى أهله، ولا يغار عليهم، مع قلتهم وكثرة
 العرب « وَيَتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ » أى يختلسون قتلا ونهبا وسبيا « أَفَبِأَبْطَالٍ
 يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ » أى: أفبعد هذه النعمة الظاهرة وغيرها من النعم، التى لا يقدر
 عليها إلا الله تعالى، يكفرون خيره، ويشركون معه غيره .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٨] (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ وَ

الَّذِينَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ)

[٦٩] (وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ، وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ)

« وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا » بأن زعم أن له شريكا « أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ
 لَمَّا جَاءَهُ وَ » يعنى الرسول أو الكتاب « الَّذِينَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ » أى موضع
 إقامة ، جزاء افتراءهم وكفرهم . بلى « وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا » أى جاهدوا النفس
 والشيطان والهوى وأعداء الدين ، من أجلنا ولوجهنا « لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا » أى سبل السير
 إلينا والوصول إلى جنابنا . وذلك بالطاعات والمجاهدات « وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ » أى:
 أعمالهم بالنصر والمعونة .